الحضور الأسطوري في سيرة الرسول محمّد
(قراءة مقارنة في السّيرة النّبوية بين التراث والمعاصرة)

أ/ محمّد علاقـــي
كليةالآداب والعلوم الإنسانية
جامعـــة سـوسـة (تونس)

ملخّص:

إنّ إعادة قراءة الفكر الديني انطلاقا من شخص الرسول وفق المقاربة الأكاديميّة، يقتضي إعادة التفكير في مطابقة ما ضبطته المصادر من تواريخ أرّخت بها لحياة محمّد صلى الله عليه وسلم ومسيرة الدّين الجديد، سعيا إلى بناء ذهنيّة دينيّة مرتكزة على ما أمكن من الدقّة العلميّة، ويتمثّل جهدنا في محاولة إماطة اللثام عمّا هو أسطوري متخيّل في حياة الرسول، وسنركز على جوانب منها، الولادة وإشكاليّة التسمية، وما جعلنا نركز على هذه الجوانب أكثر نظرا لما وجدناه في كتب التراث من تضارب واختلاف بين الأخبار والمرويّات يلفّ الأحداث بهالة من الشكّ، بل ويؤسطرها في أحايين كثيرة، وقد حاول كل من معروف الرصافي (الشخصية المحمدية أو حلّ اللّغز المقدّس)، وهشام جعيط (السيرة النبوية) في دراستهما للسيرة النبوية إماطة اللّثام عن كلّ ما هو أسطوري في حياة النبي محمد.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، السيرة النبوية، التراث الديني، التجديد، الواقع والمتخيّل

The Mythical in the Life of the Messenger, Muhammad: A Comparative Reading between Tradition and Modernity

Abstract:

In an attempt to construct a religious mentality that is founded on as much scientific precision as possible, a re-examination of the religious thought on the basis of the messenger's character and following an academic approach is required, which, in turn, necessitates a reconsideration not only of the compatibility of the different pinpointed dates chronicling the life of Muhammad – peace be upon him, – but also of the course of the new religion.

The aim of this paper is to unravel what is mythical and fictional in the prophet's life, foregrounding aspects such as his birth and the problematization of the appellation. Additionally, light will be shed on that which encouraged a concentration on these different elements considering the residual contradictions and differences between news and tales that question – even mythologize – the events.

Through their studies, each of Maruf al Rusafi (*The Mohammedan Character or Solving the Sacred Enigma*) and HishamDjait (*The Life of Muhammad*) tried to disclose all that is mythic in the life of the prophet, Muhammad.

Keywords: myth, life of the prophet, religious tradition, modernity, the actual and the fictional.

مقدّمة:

تعرّف الأسطورة في الغالب بأنّها"حكاية خرافيّة، شعبيّة الأصل وغير متروية[1]". من هنا تبدو الأسطورة مجالا خصبا يتداخل فيه التاريخي بالخيالي والعقلاني بالخرافي، فهي "لا تتحدّث إلاّ عمّا وقع بالفعل أي عمّا كان جليّ الظهور[2]" حسب مرسيا إلياد، ومن مميّزات الأسطورة أنّها تتسم بالقدم فهي عبارة عن حكايات شعبيّة تعاد، وفي كلّ مرّة تأخذ طابعا مميّزا حسب ذهنيّة المجتمع الذي يسردها في بيئته وراهنه التاريخي والثقافي بكل بساطة هي"تجمّع ذكيّ وناجع لنتف متفرّقة من حكايات قديمة تعود إلى عهود قديمة ولا يهمّ في الأسطورة مطابقتها للواقع والتاريخ[3]". تكون إذن الأسطورة متلوّنة بقضايا عصرها وتتلوّن بسياسة سلطانها وتحمل طموح المجموعة فتشحن بهذه الرغبات الذاتيّة، وتبتعد الحقيقة التاريخيّة عن الإدراك ذلك أنّ "المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن الحدث التاريخي تفقد هذا الأخير ماديّته وتحوّله وفقا لذلك إلى زمن أسطوري نحمله في ذواتنا[4]"، وإذا تداخلت الأسطورة بمعطيات شخص غيّر مجرى الكون لوّنت شخصيّته وأعطته طابع القداسة. وعليه نرى أنّ الطابع الأسطوري الذي ميّز سيرة النبيّ محمد قد ساهم بشكل كبير في تضخيم الخوارق بخصوص حياة النبيّ وخاصّة ما تعلّق بمولده وتسميّته، والمتأمّل في الأخبار الناقلة لتفاصيل حياته بدءا بولادته وصولا إلى نبوءته، يتبيّن أنّ الرّسول محمّد في كتب السيرة يشترك مع البطل الأسطوري في ملامح عدّة "ولعلّ هذا ما يفسّر التكامل بين الأسطورة والحدث التاريخي إذ أنّ الحدث الأسطوري لا يحجب الحدث التاريخي بل إنّه يحتويه ويضفي عليه القداسة[5]. وعليه نجد دوما ذلك الارتباط إن لم نقل التلازم بين الأسطورة والقداسة، بما أنّها "حكاية مقدّسة تقليدية، بمعنى أنّها تنتقل من جيل إلى جيل بالرواية الشفهية، ممّا يجعلها ذاكرة الجماعة"[6].

لقد حاول مجموعة من الباحثين المحدثين إعادة قراءة السيرة النبوية بآليات جديدة ومنهجية علمية وبفكر غير تقدسي، رغبة منهم في تنقيتها من الشوائب والزيادات والمغالطات التي طالتها وعلقت بها لأنها في الحقيقة تسيء إلى شخص الرسول أكثر ممّا تخدمه، ومن هؤلاء الباحثين، معروف الرصافي في كتابه(الشخصية المحمّدية أو حلّ اللّغز المقدّس) وهشام جعيط في مؤلفاته حول السيرة النبوية (في السيرة النبوية)، وقد حاول هذان الباحثان الكشف عن البعد أو الحضور الأسطوري في السيرة النبوية وخاصة ما تعلّق بمولده (عليه الصلاة والسلام) وتسميته ونبوءته.

1-حدث الولادة: الرؤية الرمزيّة

إنّ الجانب الأسطوري ترسّخ والتصق بالرسول محمّد قبل ميلاده، من ذلك ما يذكره ابن هشام فيما يخصّ المرأة الّتي عرضت نفسها على عبد الله[7]. ونقول إنّ مثل هذه المرويّات تجاوزت الحضور العادي إلى الحضور الرمزي. وعليه فإنّ تصوير الروّاة للنّور الّذي كان على جبين والده يعتبر ضربا من ضروب الأسطرة والتمجيد، ويدخل ضمن إرهاصات مقدّمات النبوّة سواء أثناء حمل آمنة بنت وهب ثمّ ولادتها له وصولا لفترة صباه محل الإشكال التاريخي لندرة الأخبار التي تدارست هذه الفترة وهو ما فتح باب التخييل وربما الوضع في مستوى الأخبار والمرويّات. وإنّ إعراض عبد الله عن طلب هذه المرأة يذكّر بإعراض النبيّ يوسف عن زليخة حين همّت به وعرضت نفسها عليه.

فطقوس الحمل قد احتوتها الأسطورة إلى حدّ لا يمكن الكشف عن الحقيقة فيها إذا ما عتبرناها موصولة بتدخّل الإعجاز الإلهي في الموضوع والمختلق الخالي من هذا التدخّل الغيبي والمجانب للحقيقة.

ومن الأخبار التي ذكرها ابن هشام حول حدث الولادة " أنّ آمنة بنت وهب حين حملت برسول الله قيل لها: قد حملت بسيّد هذه الأمّة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شرّ كلّ حاسد، ثمّ سمّيه محمّدا. ورأت حين حملت به أنّه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام"[8]. ولعلّ ما لا يقبله العقل هي الرواية الّتي يذكرها ابن الجوزي من أنّ الأنبياء زاروا آمنة في فترة حملها وبشّروها بنبوّته[9].

كما تحضر الأسطورة وبقوّة في قصّة النسوة اللواتي خرجن من الحائط وهنّ حوّاء وآسية ومريم بنت عمران يوم ولادته[10]. ولا شكّ أنّ إنتاج هذه الأخبار يعتبر في ظاهره بحث في مسألة الولادة، "ولكنّها تؤكّد في باطنها البحث المتلاحق عبر الحقبات الحضاريّة والثقافيّة عن الصورة الّتي تريد كلّ جماعة أن يكون عليها محمّد"[11]. وعليه فإنّ تنوع المرويّات المنخرطة في ولادة النبي محمّد وتسميّته تتقاطع مع قصص مماثلة لها في الثقافة العربية والمسيحيّة وغيرهما من الثقافات.

إنّ ولادة محمد ونبوّته في مكّة[12] ذات التاريخ الدّيني المشعّ على شبه الجزيرة العربيّة كانت بمثابة الحدث الهامّ والمفاجئ بالنّسبة إلى قريش وأسيادها. ويؤكد العفيف الأخضر في كتابه **من محمّد الإيمان إلى محمّد التاريخ** على ندرة الأخبار والمرويّات عن محمّد في نشأته قائلا"لا نكاد نجد في السيرة عن طفولة محمّد، منذ زواج عبد الله بآمنة إلى عودته من مرضعته الأخيرة حليمة السعديّة، إلاّ ميتا تاريخ أي–كما يتطلّب ذلك منطق النرجسيّة الدينيّة الجمعيّة–محاولة للارتفاع به، من شرطه التاريخي، إلى مرتبة المثال البعيد المنال، إلى مرتبة الإنسان الكامل، الّذي رصدته الأقدار ليكون نبيّ هذه الأمّة، الّتي كرّمها الله به لتكون آخر وخير أمّة أخرجت للنّاس"[13]. هذا التداخل والتضارب في المرويّات عتّم وأسطر ولادة محمّد بشكل تام فقد روى الحلبي عن آمنة بنت وهب " أنّها قالت: فوضعت عليه الإناء فوجدته قد تفلّق الإناء عنه، وهو يمصّ إبهامه يشخب، أي يسيل لبنا"[14] ولمثل هذه الرّوايات أثرها في تعمّق الخلفية الإعجازية وتضخيم النصوص التاريخيّة للحدث وكلّ ما يحفّ به من معطيات إلى حدّ أنّنا لا نعرف تاريخ ميلاده بالضبط الدقيق. ولا يمكن للباحث أن يجزم بصحّة الأخبار الموصولة بحدث الولادة ما لم تثبت وتتعدد المعطيات عن صحته، ولعلّ ذلك ما يفسر غيابا شبه كامل لتعليق من الرصافي وهشام جعيط عن عشرات الروايات التي ذكرها المفسّرون والمؤرّخون وتدخل في حيّز العجائبي والمعجز.

2–تاريخ الولادة بين الحقيقة التاريخية والقداسة الأسطورية:

تضاربت الأخبار الّتي وصلتنا في كتب التراث والسيرة والتي تحدّثت عن تاريخ ميلاد الرسول محمد رغم اشتراكها في ذكر **عام الفيل**، سواء كان القول بولادته قبل أو بعد هذا العام، وفي هذا الموضع يدلي الرّصافي بدلوه قائلا"إذا أردت أن تعرف تاريخ ولادة النّبي فرجعت إلى كتب القوم فإنّك ترى العجب العجاب، ففي رواية أنّ ولادته كانت في عام الفيل، وفي أخرى كانت في يوم الفيل لا في عامه، وفي رواية كانت ولادته بعد الفيل بخمسين يوما وفي أخرى بعد الفيل بخمسة وخمسين يوما، وفي أخرى بعده بشهر، وفي أخرى بعده بأربعين يوما، وفي أخرى بعده بعشرين سنة، وفي رواية أخرى–وهذه أغربها– كانت ولادته قبل الفيل بخمس عشرة سنة"[15]، لكن ثمّة من ذهب بتأويلاتهالأسطوريّة إلى أبعد من ذلك معتقدا أنّ الذّات الإلهيّة قد دبّرت واختارت عام الفيل "فجعل ولادته ونبوّته وهجرته ووفاته في يوم واحد من شهر واحد، هو يوم الاثنين الثّاني عشر ربيع الأوّل"[16]. ويضيف الرصافي معلّقا على تضارب الأخبار في مولده بقوله"وإذا حسبنا عدد السنين ممّا قبل الفيل بخمس عشرة سنة إلى ما بعده بسبعين سنة كان عددها خمسا وثمانين سنة. فهل هذا اختلاف في الرّواية أم هو اضطراب"[17]. ولعلّ الاضطراب الحاصل في صعوبة تحديد فترة ولادة الرسول تعود إلى الوهن الحاصل في نقل الخبر وما يعتريه من تصحيف يصل حدّ الاختلاق والزعم "وحتما إنّ الرواية يأتيها الوهن من وجوه: أحدهما رواية الحديث بالمعنى،

وذلك أنّ الراوي يسمع الحديث فتقوم لمعناه صورة في ذهنه فيلفظها ولا يكترث لألفاظ الحديث، فيصير بعد ذلك يرويه بألفاظ من عنده تقوم مقام ألفاظه الأصليّة أو بألفاظ قريبة منها فيكون الحديث المرويّ بهذه الطريقة عرضة للتغيير، "وربّ لفظة لا تقوم مقام أخرى وإن كانت بمعناها أو قريبة منها"[18]. لكن مثل هذا الرأي القائل بعدم الأخذ من الخبر المتعدّد يرفضه صاحب السيرة الحلبيّة ويدافع عنه بضراوة في قوله"لا مانع من تعدّد الرواية في الحادثة"[19]. وبدوره ينقده الرصافي في كتابه قائلا"وأمّا قول صاحب السيرة الحلبيّة–وقد يقال لا مانع من التعدّد– فكلام فارغ إذ من البعيد جدا أن تتكرّر هذه الحادثة بشكل واحد"[20]. فلا شك أنّ الخبر إذا تداوله الروّاة وطال سيره وانتشاره بينهم كان عرضة للتغيير والتبديل بسبب ما يكون في الروّاة من سوء فهم ومن ضيق وعي وما يعتريهم من ذهول ونسيان. وإذا ما نظرنا إلى تهافت الأخبار في تاريخ ولادة النبي وكذلك حول وفاة والده أدركنا أنّ الأخبار لم تكن تُروى بمحض الصدفة وإنّما كانت مشدودة إلى غايات اجتماعيّة وسياسيّة ودينيّة وإنّ ابتعاد الحدث عن تاريخ روايته يكون حتما مرتعا لأهواء الروّاة ومقاصدهم الدّينيّة والدنيويّة، ولعلّ الأمر الّذي يحيّر أكثر هو أنّك تجد روايتين تحملان نفس الخبر وفي نفس الوقت إحداهما مثبتة والأخرى منفيّة، وما اختلاف مذاهب الفقهاء في أمر العباد والعبادة إلاّ لكونه ناشئا من اختلاف الروايات وتعدّد سندها،"ولا سبب لانشقاق الأمّة الإسلاميّة وانقسامها إلى فرق متخالفة وطوائف متناكرة إلاّ الروايات من جهة مقصور عبارات النصوص الشرعيّة في الحديث، وفي القرآن من جهة أخرى[21]".

إنّ غياب الوعي التاريخي الدقيق سمة الذهنيّة العربيّة الإسلاميّة، فرغم أهميّة محمّد دينيّا وحضاريّا وكثرة ما كتب حوله إلا أنّ المعرفة التاريخيّة على وجه الدقّة التاريخيّة بأبرز الأحداث في حياته وأهمّها في ميلاده تكاد تكون نادرة، إذ إنّ التأريخ المتواتر في المصادر يكاد يكون تقريبيّ أو هو رمزيّ ثقافيّا. أمّا إعادة قراءة الحدث التاريخي بالنسبة إلى هشام جعيّط فهي لا تلتزم التسلسل التاريخي ولا تتّبع مسيرة محمّد التاريخيّة تأريخا لها في التفاصيل والجزئيّات كما وردت في المصادر التي كانت حسب رأيه "تستذكر الوقائع كما هي لكن من دون أن تقوم بتفسيرها"[22]، إنّما تروم تفهّم نظام مسيرة محمّد الحياتيّة من المصادر بعد مقارعتها فيما بينها ثمّ نصّيّا مع القرآن وتاريخيّا من خلال دراسة العوامل الموضوعيّة المتحكّمة في الأحداث بوعي نقديّ استنادا إلى محصول المعرفة المعاصرة، يقول هشام جعيّط موضّحا هدفه في الجزء الثالث من كتابه"إنّ هدفي في هذا الكتاب هو استبدال **أساطير** ومختلقات السيرة بتاريخ انتقادي حقيقي"[23] بغية الإمساك بمنطق انتظام داخليّ للأحداث حتّى تصير أكثر استصاغة، إضافة إلى قراءة أبعادها ودلالاتها لا قراءة إيمانيّة تعبديّة وإنّما قراءة تاريخيّة معرفيّة وإن أدّى ذلك إلى تصويب ما ذكرته المصادر وتقويم رؤيتها حينا، بلغ الأمر أحيانا التشكيك في بعض المسلّمات فكان من بديهيّ الاهتمامات الانشغال بمرحلة ما قبل المبعث لِما سكنها من غموض من جهة ولتمكّنها من الوعي الديني حتّى غدت من المسلّمات مثل **تاريخ ولادته** وتاريخ زواجه وبداية الوحي ومدّة إقامته في مكّة وعمره واسمه واسم والده عبد الله، والأمر نفسه في المرحلة المدنيّة خاصّة أخبار محمّد واليهود.

إنّ المسلّم به في كتب السيرة أنّ محمّدا ولد عام الفيل 570 م، "قال ابن إسحاق وحدّثني المطّلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة (قيس بن مخرمة) قال ولدت أنا ورسول الله عام الفيل"[24] وذهب على بن برهان الحلبي ت(1044هـ) في (**إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**) إلى أنّ ولادة محمّد كانت بعد هجوم أبرهة على مكّة بعشرة سنين[25]، تمكّن هذا التاريخ من الوعي الديني حتّى لا سبيل إلى الشكّ فيه، غير أنّه أضحى موضوع إعادة نظر في الدراسات الإسلاميّة العربيّة والاستشراقيّة، يقول معروف الرصافي في هذا السياق "تجد فيها(ولادة محمّد) اختلافا بلغ أحد عشر قولا وتجد المادّة التي تضمّنها اختلافهم تتراوح بين ما قبل الفيل بخمس عشرة سنة وما بعد بسبعين سنة"[26]، وأورد جواد علي[27] آراء مختلفة في الموضوع لكن دون تدقيق ولا اتّخاذ رأي واضح "والرأي الغالب بين الناس أن حملة أبرهة على مكة كانت قبل المبعث زهاء أربعين سنة، وميلاد الرسول كان في عام هذه الحملة، وهو العام الذي عرف بعام الفيل وهو يوافق سنة 570 أو 571م... وقد ذهب بعض الرواة إلى أن عام الفيل إنما كان قبل مولد النبي بثلاث وعشرين سنة... وذكر بعضهم أنه كان في السنة

الثانية من ملك هرمز ولما كان ابتداء حكم هرمز بن أنو شروان سنة 579 فعام الفيل يكون في حوالي السنة 581 للميلاد لا سنة 570 أو 571 للميلاد كما يذهب الأكثرون إلى ذلك"[28]، أمّا طور أندري Tor Andrea فقد حدّد فترة الحملة دون تعيين سنة بعينها إذ لا يُعرف تاريخها على وجه الدقّة بل هي بين سنة 540 م و562م إذ حصلت في فترة الصراع بين الإمبراطور البيزنطي جستنيانوس[29]Justinienien والحاكم العادل خَسرويْهChosroès le Juste.

وشكّك هشام جعيّط في تاريخ ولادة محمّد انطلاقا من خاصيّة الذهنيّة العربيّة فالعرب يؤرّخون بالحوادث لا بالسنين، أرّخت قريش بموت قصي وبحادثة الفيل وببدر وبفتح مكّة وفي السياق ذاته كان تاريخ ولادة محمّد معتبرا عام الفيل في الذهنيّة العربيّة القديمة علامة زمنيّة بارزة تُقرن بها الأحداث التاريخيّة الهامّة القريبة منها زمنيّا وليس تأريخا دقيقا مؤكّدا أنّ "هجمة أبرهة على العرب وقعت سنة 547 حسب النقوش"[30]. إنّ الصلة التأريخيّة بين حادثة هجوم أبرهة الحبشي على مكّة وولادة الرسول ضعيفة وواهية زمنيّا فهي من باب وسم الحدث بعد فواته بسنين، كما يمكن إدراج تأريخ ولادة محمّد بحادثة الفيل في سياق التعالي بالحدث التاريخي واتّخاذ الحادثة علامة على فضل محمّد لدى ربّه وإكراما لمولده نجت مكّة من الهدم لمّا رفض الفيل التوجّه نحوها، فالحادثة مرتبطة بالميتافيزيقي الآتي ومؤسّسه محمّد، ومن تلك الجهة يمكن فهم ربط كتب السيرة حادثة الفيل بولادة محمّد، لذلك رجّح هشام جعيّط أنّ محمّد ولد حوالي سنة 580 م وليس سنة 570م "لم يولد محمّد في رأيي قبل سنة 580 أو حواليها أو بعدها" وهو رأي كان قد ذهب إليه رودانسونRodinson معتبرا ولادة محمّد سنة 580م[31]. إنّ المقاربة الأكاديميّة تراجع الثوابت مستفيدة من إعادة قراءة مختلف الآراء الموروثة منها والمعاصرة وترجّح رأيا دون أن تبتدع موقفا خاصّا في هذا المستوى فهي من باب تقويم وتصويب السائد.

إنّ تجديد الفكر الديني وفق المقاربة الأكاديميّة يقتضي إعادة التفكير في مطابقة ما ضبطته المصادر من تواريخ بها أرّخت حياة محمّد ومسيرة الدّين الجديد مع الواقع، سعيا إلى بناء ذهنيّة دينيّة مرتكزة أكثر على ما أمكن من دقّة مدركة ضبابيّة وأسطرة ما حفلت به المصادر من تواريخ من باب الاحتمال والتوقّع لا اليقين لا سيّما أنّ القرآن لا ينشغل بالجزئيّ والتفاصيل ولا بتاريخ وقوعها.

إنّ الضبابيّة والأسْطرةِ في التأريخ حكمت أيضا زواج محمّد وعمره وعمر خديجة وزمن نزول الوحي، فلا علم على وجه الدقّة بعمر الرسول في المصادر ولا متى نُبّئ ولا كم بقي في مكّة بعد المبعث فبين المقرّ بعشرة سنين في مكّة وعشرة مثيلاتها في المدينة إلى المقرّ بثلاث عشرة سنة[32]. ولئن أقرّت السيرة أنّ خديجة تزوّجت محمّد وهي في الأربعين في زواج ثالث وهو ابن الخامسة والعشرين عاما فإنّ مقاربة هشام جعيّط استنادا إلى ما ذكره البلاذري (ت297هـ) وإلى الخصائص الأنتروبولجيّة تستبعد أن تظلّ خديجة تنجب إلى السنّ الخمسين والفتاة العربيّة تدخل قديما مرحلة الحيض مبكّرا وترفع عنها أيضا حيضتها مبكّرا فعائشة دخل بها محمّد وهي في العاشرة وقد اكتملت بنيتها الفزيولوجيّة فأنّى لخديجة أن تنجب لمحمّد أبناء وبنات بعد الأربعين "وسنّ الأربعين في ذلك الزمان سنّ شيخوخة"[33]، رجّح هشام جعيّط أن تكون خديجة في الثامنة والعشرين من عمرها ومحمّد في الثالثة والعشرين من عمره لأنّ رقم الأربعين رمزيّ في الثقافات الساميّة كرقم سبعة وبه وُسمت أبرز الأحداث، فالوحي نزل على محمّد في الأربعين وخديجة في الأربعين تزوّجت محمّد، رقم الأربعين لا يترجم تاريخا دقيقا إنّما رمزا ثقافيّا لما تقدّس في الوعي، لذلك يقول جعيط "إنّ ما تلا ذلك من أحداث ودخل في الوعي الدّيني الجماعي أسطورة حلوة ولعلّها كانت ضروريّة لشحذ الحساسيّة الإسلاميّة إلى اليوم[34]"

وعليه يرى الرصافي أنّ عام الفيل الذي اعتبر تاريخ ولادة محمّد وسنّ الأربعين الذي اعتبر تاريخ بعثته علامتان زمنيّتان رمزيّتان في الثقافة العربيّة قبل الإسلام أكثر منهما وقائع حقيقيّة. واستند هشام جعيّط إلى ما جاء في سورة يونس(10 / 16) ﴿ فَلَقَدْ لَبِثَ فيكُم عُمُرا مِن قَبْلِه أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ليرى أنّ البعثة كانت في الثلاثين أو ما يقاربها قياسا أيضا

على عمر النبيّ عيسى لمّا أوحي إليه. يقول هشام جعيّط مبيّنا موقفه من المسائل ذات الصلة بالوعي التأريخي "رأيي أنّ محمّدا بُعث في الثلاثين أوّ حتّى قبل ذلك ولم يولد إلاّ حوالي 580 ولم يعش إلاّ خمسين سنة ونيفا"[35].

إنّ شكّ الرُصافي في روايات المولد يستند إلى تلك الرّوايات نفسها وهو ما يجعله شكا منهجيّا صارما، رغم أنّ صاحبه لم يقرّر تاريخا بعينه لولادة محمّد، فليس بين يدي الباحث في عهده، وقبله وبعده من تاريخ النبيّ إلاّ "المصادر المكتوبة بعد قرنين من حياة محمّد"[36]. وما يذهب إليه المستشرقون من ولادة الرّسول سنة ثمانين وخمسمائة من الهجرة(580هـ) أو بعدها بسنة أو سنتين" تقريب تاريخي لا يقوم على شواهد ماديّة"[37]. بذلك تكون قراءة الرصافي ناتجة عن روح تحرّر من أسر التقليد والاستنساخ وهو داء أصاب كتابة السّيرة قديما وحديثا، ولعلّ هذه النّزعة في تفكيره هي الّتي أنتجت قراءات علميّة مفيدة في كتابته لتاريخ محمّد، رغم أنّ الرصافي لم يستطع أن يقيم البرهان على تلك الاستنتاجاتفي كثير من الأحيان لعدم امتلاكه لثقافة تاريخيّة حديثة، ولكونه كتب قبل أن تتطوّر الدّراسات المحمّديّة في الغرب تطوّرا كبيرا منذ النصف الثاني من القرن العشرين. ولا غرابة في أن يخلخل الرصافي إيمان المؤمن المقلّد من خلال تقديمه لصورة غير مطّردة للنّبي محمّد، من خلال نزع الهالة القدسيّة عن الشخصيّة المحمّديّة.

لقد أثارت ولادة محمّد إشكاليّة تأريخها وإشكاليّات أخرى اكتفى هشام جعيّط بالتعليق عليها قائلا "عندما نتفحّص أعمار أعمام النبيّ وأعمار أبنائهم نستغرب بعض الأمور... مقابلة الأعمار في الجيل الثاني تؤدّي إلى الريبة"[38] لكن دون أن يقابل بين الأعمار ودون أن ينظر في المستراب منها شأنه شأن الرصافي. إنّ عبد الله وعبد المطّلب تزوّجا في مجلس واحد جاء في **الطبقات الكبرى** "قال: حدّثنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي قال حدّثني عبد الله بن جعفر الزهري عن عمّته أمّ بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة عن أبيها قال: عمر بن محمّد بن عليّ بن أبي طالب عن يحي بن شبل عن أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين قال: كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب في حجر عمّها وُهيب بن عبد مناف بن زهرة فمشى إليه عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بابنه عبد الله أبي رسول الله فخطب إليه آمنة بنت وهب فزوّجها عبد الله بن عبد المطّلب وخطب إليه عبد المطّلب بن هاشم في مجلسه ذلك ابنته هالة بنت وُهيب على نفسه فزوّجه إيّاها فكان تزوّج عبد المطّلب بن هاشم وتزوّج عبد الله بن عبد المطّلب في مجلس واحد فولدت هالة بنت وهيب لعبد المطّلب حمزة بن عبد المطّلب فكان حمزة عمّ رسول الله في النسب وأخاه في الرضاعة"[39]، تزوّج عبد الله آمنة، وتزوّج عبد المطّلب هالة وحملت آمنة بمحمّد مباشرة يقول ابن هشام عن ابن إسحاق "فخرج به عبد المطّلب حتّى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب... دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله"[40]، مات عبد الله وآمنة حاملة محمّد في بطنها "ويقال أنّ عبد الله هلك والنبي ابن ثمانية وعشرين شهرا"[41]لكنّ مهما كان الاختلاف في تاريخ وفاة عبد الله فإنّه لا يفسّر فارق العمر بين محمّد وعمّه حمزة ابن هالة، وقد تراوح الفارق بينهما من السنتين إلى الأربع سنوات باختلاف الروايات من ذلك قول ابن سعد "وقُتل رحمه الله (حمزة) يوم أحد على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة وهو يومئذ ابن تسع وخمسين سنة، كان أسنّ من رسول الله بأربع سنين"[42], رغم تخصيص ابن سعد في الجزء الثالث من **طبقاته** بابا لحمزة بن عبد المطّلب إلاّ أنّ المسألة لم تكن مثار اهتمامه، فهل تأخّرت ولادة محمّد أربع سنوات عن ولادة حمزة رغم تزامن زواج والديْهما ووفاة والده مبكّرا؟ أو أنّ كتب السيرة فاقدة منطق الانسجام في الأحداث والوقائع تذكرها تراكما دون تراتب أو أنّ الوعي التأريخي في المصادر ضامر وليس ما تضمّنته إلاّ وسما للأحداث لا تأريخا دقيقا لها ثمّ صارت بعد ذلك من المسلّمات في الوعي الديني.

تنخرط السيرة في الكتابة التأريخيّة غير أنّ ما تضمّنته من تواريخ تفتقد إلى كثير من الدقّة، فقليلة الاستفادة التأريخيّة منها؛ لأنّ الوعي التاريخي لم يتشكّل بعد وليس ذلك بالمستغرب باعتبارها سمة العقليّة الشفهيّة ذات التأريخ التقريبي للأحداث لا سيّما قبل اعتماد الهجرة منطلقا للتأريخ.

لقد أزاحت المقاربة الأكاديميّة لحاف المصداقيّة والوثوقيّة عمّا أوردته السيرة من تواريخ واعتبرت أنّ "أهميتها تكمن في ما يتجاوز علم التاريخ في كونها أعطت المخيال الجماعي الإسلامي إطارا كاملا لقصّة حياة محمّد"[43] لا تاريخا دقيقا يمكن الاعتداد بوثوقيّته.

حتما إنّ هذه الأخبار جاءت مقترنة بالبشائر المذكورة في مولد النّبي إلى جانب تبشير الديانات السّابقة به بطريقة أسطوريّة، ولا يمكن أن نعدّها كمادة تاريخيّة لأنّها لا تتوفّر على شروط الضبط التاريخي علاوة على أنّ التاريخي فيها ملتبس بالأسطورة إلى حدّ يصعب فيه التفريق بينهما، وحسب ما أجمعت عليه أغلبيّة المصادر العربيّة أنّ ولادته كانت "عام الفيل"[44]. ويذكّرنا عام الفيل بالحدث الأبرز المتمثّل في هجوم أبرهة بجيشه على الكعبة ومحاولة تدميرها، أي أنّ هذا العام طبع بالهجوم على المقدّس ومعارضة الصبغة الدينيّة لذلك لا يجب أن نطمئِنّ إلى أنّ عام الفيل كان لمجرّد التأريخ للمولد، فنجد أنّ ابن هشام وابن سعد قد قصرا مولد محمّد على عام الفيل[45]، في حين نجد أنّ الماوردي (ت450هـ) جعل قصّة الفيل وكلّ ما حدث فيها من أحداث تاريخيّة هي آية من آيات محمّد إذ يعتبر أنّ اللّه قد حمى محمّد وهو جنين من السبي، وحمى قريش –ودينها الشرك والزندقة والتكذيب بالبعث– من بأس أبرهة "تأسيسا للنبوّة وتمهيدا لظهور الإسلام"[46]، ولو راجعنا ما ذكر عن عام الفيل لوجدناه تارة مقترن بميلاد محمّد وتارة أخرى بالتأريخ للمولد وتأويله والاحتجاج به على التبشير بالرّسالة وهذا يدخل حتما ضمن مجال الأسطرة والخرافات.

3–تسميةالرّسول (محمّد) بين الواقع والمرغوب:

لقد أجمعت كتب السيرة على وجود اسمين للرّسول هما أحمد ومحمّد، وإن كانا قد اختلفا في الدلالة وفي المرجعيّة، فتعدّدت الروايات واختلفت المرجعيات لتحديد مصدر الاسم، فنجد الفرضيّة الأولى تقول بأنّ جدّه هو من سمّاه، والفرضيّة الثانيّة هي عبارة عن رواية تندرج ضمن رواية التبشير وتقول بأنّ آمنة أمّه أُمرت أن تسميه بهذين الاسمين أو أحدهما، زيادة على أنّ اليهود والنصارى والكهّان كانوا يذكرونه. أمّا من الأحاديث الّتي ذكرها الرّسول عن اسمه فقوله "أنا محمّد وأحمد"[47]، وإذا عدنا إلى القرآن وجدناه يقرّ في أكثر من سورة أنّ اسم النّبي محمّد (آل عمران 144/3، الأحزاب 40/33، محمّد 2/47، الفتح 29/48...)، لكن ماذا لو عدنا وأمعنّا النّظر في أصل تسميّة الرّسول في الجاهليّة قبل الإسلام.

يعود أصل هذه التسميّة حسب رواية الحلبي إلى أنّ عبد المطّلب لمّا توفيّ ابنه (قثم)وهو ابن ثلاث سنوات تحسّر عليه وتألّم على فراقه فلمّا رزق بحفيده سمّاه بهذه التسميّة، لذلك تداولت الرواية كون محمّد كان اسمه "قثم" قبل الإسلام. ويرى المستشرق الفرنسي لمانس أنّ "تسميّة القرآن للنّبي باسم محمّد وأحمد هما اسمان قرآنيان يحملان في طيّاتهما ما يحملان من الثناء والتمجيد"[48]، هذه التسميّة التي قيل أنّها كانت اسم الرّسول في الجاهليّة لاقت معارضة من طرف البلاذري وغيره ممّن عاصروه إذ يقول "ولا نحسب أنّ محمّدا سُميّ قثم، ولكن نُسب إليه هذا الاسم خطأ من قبل كنية أبيه عبد اللّه بن عبد المطلب، فإنّه كان يُكنّى أبا قثم"[49].

ظلّ اسم محمّد في مصنّفات السيرة غير محّدد تحديدا قاطعا متراوحا بين أحمد ومحمد، من ذلك مثلا أنّ ابن سعد في **الطبقات الكبرى** خصّص له بابا سمّاه ذكر أسماء الرسول وكنيته، وأورد أخبارا أخرجت الاسم عن التحديد منها قوله: " قال: وأخبرنا عفّان بن مسلم، أخبرنا حمّاد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زرّ بن حُبيش عن حذيفة قال: سمعت رسول الله يقول في سكّة من سكك المدينة: أنا محمّد وأحمد والحاشر والمُقفّى ونبيّ الرحمة"[50]. إنّ اللقب في الذهنيّة العربيّة وسمٌ لصفات اتّصف بها الرجل وهو ما يفسّر تصريح النبيّ نفسه بتعدّد أسمائه "أخبرنا معن بن عيسى الأشجعي، أخبرنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمّد بن جُبير بن مُطعم عن أبيه أنّ رسول الله قال: لي خمسة أسماء أنا محمّد وأحمد وأنا الماحي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي وأنا العاقب"[51] وكلّ الأسماء السالفة الذكر مثقلة دينيّا

بصفات الرسول وأفعاله والمفترض أنّها تبلورت بعد الأربعين من عمره لا قبلها ممّا يرجّح أن يكون اسم محمّد الذي عرف به النبي ممّا وَصَف به المسلمون أفعال الرسول وفضائله باعتبارها محمودة مشهورة ممجّدة لذلك غلّبت السيرة اسم محمّد عن غيره من الأسماء التي ذكرها ابن سعد مثلا والتي تشترك جميعها في نفس آليّة الوسم ودلالاتها.

لم يكن المشتقّ (محمّد) جاريا لا عند العرب ولا عند قريش استنادا إلى ابن سعد في **طبقاته** الذي ذكر أنّه لم يسمّ بهذا الاسم إلاّ عدد قليل طمعا في النبوّة[52] وذكر الحلبي أنّ بعضهم عدّ الذين سمّوا بهذا الاسم قبل محمّدا ستة عشر رجلا وقال بعضهم في نفس الرواية ثمانية عشر[53]، ذكرت **الطبقات** تواتر اسم محمّد في بني خزاعة "سمّي محمّد بن خُزاعي بن حزابة من بني ذكوان من بني سليم طمعا في النبوّة"[54] وأرجعت كتب السيرة بداية ظهور اسم محمّد إلى قبيل ظهور الدعوة المحمديّة، قال القاضي عياض: "... وكذلك محمّد أيضا لم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده صلّى الله عليه وسلّم وميلاده أنّ نبيّا يبعث اسمه محمّد فسمّى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم"[55]، وأثار بعض الدارسين المحدثين إشكاليّة الاسم، فذهب شبرنجرSprenger أنّ لفظة محمّد لم تكن اسم علم للرسول واعتبرها نولدكه ذات مصدر نصراني مأخوذة من بارقليطParakletos الواردة في إنجيل يوحنّا والمترجمة بمنحمانا، منحمنا Manhamana في الآراميّة ثمّ صارت اللّفظة محمّدا وقد ذكر ابن هشام "أنّ البَرَقليطسو"المنحمنا بالسُريانيّة: محمّد وهو بالروميّة: البرقليطس"[56]، ويرجّح هشام جعيّط أنها من أصل سرياني أُخذت من كلمة "محمّدان" وهو لقب كان يطلق على أمراء غسّان المسيحيين أخذه السريان من الروم وخلع الروم هذه الصفة (Virillustris) على البطارقة والأمراء ترجمة من اليونانيّة لكلمة illoustrios بمعنى الأمجد والأشهر ونُسبت إلى الرسول بعد نجاح دعوته وتمركزها في المدينة باعتبار أن أفعاله صارت محمودة . قال ابن القيم: " إنّ هذين الاسميْن(أحمد ومحمّد) إنّما اشتقّا من أخلاقه وخصائصه المحمودة التي لأجلها استحقّ أن يُسمّى محمدا صلّى الله عليه وسلّم وأحمد وهو الذي يحمده أهل السماء وأهل الأرض ,أهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله المحمودة التي تفوق عدّ العادين وإحصاء المحصين"[57]. ألا يمكن أن نعتبرهما لاحقين لنجاح الدعوة غير سابقين، وممّا يؤكّد ذلك في نظره أنّ القرآن لم يذكر محمّدا بهذا الاسم إلاّ في السّور المدنيّة بعد أن تجلّت ملامح نجاح الدعوة في القرآن في أربع مرّات في الفترة المدنيّة (الفتح 29) و(آل عمران 133) وا(لأحزاب 40) و(محمّد الآية 2) "وعبارة محمّد بالعربيّة تعني المحمود كثيرا وأحمد من يحمد كثيرا"[58] ، وقد بشّر المسيح برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، ومحمّد وأحمد يشتركان في صفة الحمد دنيويّا بكرم الأفعال ودينيّا باستمرار الرسالة السماويّة، إنّ أغلب أسماء الرسول نعوت، ليست أعلاما محضة لمجردّ التعريف بل أسماء مشتقّة من صفات قائمة به دينيّا وأخلاقيّا توجب له المدح والكمال، اسم محمّد مشحون بدلالة دينيّة يفترض ألاّ تكون سابقة على الدين الجديد بل نتجت عنه وإن في سياق اعتبار النبوّة اصطفاء إلهيّا نسجا لصورة محمّد في المخيال.

اعتبر هشام جعيّط أنّ اسم محمّد الحقيقي (قثم)على اسم أحد أعمامه وقد مات مبكّرا وتلك من عادات العرب في تسمية المولود بعد فقد عزيز، لكنّ اللقب انتزع الاسم الحقيقى للنبي الذي توارى تحت ضغط البعد الديني وهو رأي لا يبتعد كثيرا عّما ذهب إليه إسماعيل أحمد أدهم في أربعينات القرن العشرين معتبرا اسم محمّد" مختلقا وأنّ اسم الرسول كان قثما أو قثامة وأنّ اسم والده حُوّل من عبد اللات إلى عبد الله على الصورة التي تحوّل فيها اسم أبي بكر من عبد اللات أو عبد المعزى إلى عبد الله"[59]، ومنبت فكرة اسم قثم ممتحّة من المصادر القديمة، فقد ذكر الحلبي "أنّ عبد المطّلب وجد وجدا شديدا عند وفاة ابنه قثم الذي مات ابن ثلاث سنين فلمّا ولد حفيده ابن عبد الله سمّاه باسمه"[60] والفكرة نفسها لدى البلاذري في **أنساب الأشراف**[61]، إنّ المقاربة التجديديّة توظّف الموروث توظيفها للمعاصر من الدراسات في استقراء إمكانات مختلفة للحدث الواحد دون أن تخرج في هذا السياق مثلا بجديد ولكنّها تقدّم المسوّغات التفهميّة في مخالفة ما فَضُل واعتبر من المسلّمات.

لم يكن اسم محمد وحده موضوع إعادة النظر في مقاربة السيرة أكاديميّا بل إنّ مراجعة الأسماء شملت أيضا اسم والده عبد الله ،أسماء الأعلام في ثقافة ما قبل الإسلام ذات صلة بالرموز الثقافيّة الدينيّة منها تنحت لا سيّما الأسماء المركّبة نحويّا من مفردة عبد تضاف إلى اسم إله،"وقد كانت العرب تُسمّى بأسماء يُعبدونها. لا أدري أعبدوها للأصنام أم لا: عبدُ الليل وعبد غَنْم وعبد كُلاَل وعبد رُضى... وكان لهم أيضا مَناف، فبه كانت تُسمّى قريش عبد مناف ولا أدري أين كان ولا من نصبه"[62]، وهذا كلّه في سياق التقرّب إلى الآلهة واسترضائها، ولا زالت حينها فكرة التوحيد بمعنى الله الواحد لم تتبلور، فلا يتناغم اسم عبد الله مع ثقافة وثنيّة كان أبناؤها يحملون أسماء آلهتهم مثل عبد العزّى اسم أبي لهب ولا تواترَ لاسم عبد الله في سلالة عبد مناف " أمّا عبد الله فغير متداول في هذا البطن"[63] لأن الأسماء تتوارث خاصّة من جهة الأب، فلم يتضمّن نسب محمّد في كتب السيرة اسما ذا دلالة دينيّة توحيديّة، " قال أخبرنا هشام بن محمّد بن السائب بن بشر الكلبي قال: علّمني أبي وأنا غلام نسب النبيّ: محمّد الطيّب المبارك بن عبد الله بن عبد المطّلب واسمه شيْبَة الحمد بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف واسمه المغيرة بن قُصي واسمه زيد بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وإلى فهر جماع قريش"[64]. ففي نسب الرسول ما يؤكّد نحت الأسماء انطلاقا من الآلهة فحتّى عبد المطّلب ليس اسم جدّه الحقيقي، إضافة إلى أنّ " المشكلة تأتي من كون محمّد دعا إلى الله خصّيصا وأنّه غيّر أسماء بعض أصحابه الوثنيّة وعوّضها بأسماء إسلاميّة... فالمعقول أنّه هو الذي سمّى أباه بهذا الاسم"[65].

وننوّه إلى أنّ من عادة العرب أنّهم كانوا ينادون الرّجل بكنيته توقيرا له هذا في صورة ما لم يكن له ولدا. كما نشير إلى أنّ عبد اللّه والد الرّسول توفيّ وابنه مازال لم يولد بعد، علما وأنّ كتب السيرة وهي أقدم كتب لم تمكّننا من معرفة أيّ اسم من الاسمين سميّ به الرّسول، هل كان أحمد أم محمّد؟ فنجد عند ابن سعد استعمال الاسمين مترادفين في الخبر الواحد[66].

وما يزيد الغموض حول هذه التسميّات هو سكوت القرآن عن تحديد أيّ الأسماء ظهر أوّلا وذلك لأنّه لا يتوفّر لنا ثبت تاريخيّ دقيق للسور حتى نعرف أي اسم نزل قبل الآخر، بل كلّ ما نجده هو اعتراف القرآن بالتسميات. وما يدلّ على قيمة هذه التسميّة هو ولع المسلمين به حتى جعلوه خاصيّة من خصائص النبوّة باعتبار أنّهم "قالوا لم يتّسم بمحمّد في الجاهليّة إلاّ عدد قليل طمعا في النبوّة"[67] ويتعمّق عبد اللّه جنوف في تبيان خصائص هذا الاسم قائلا "أوّلا أنّ اسم محمّد كان معروفا في الجاهليّة لذيوع خبر بعثة رسول في العرب اسمه محمّد، وأنّ البشائر هيّأت النّاس لاستقبال دعوته، وأنّه لم يفته شرف التسميّة فلم يُسمّ بهذا الاسم قبله إلاّ عدد قليل ، والجانب الثاني يتعلّق بالسبب الحامل للنّاس على تسميّة أبنائهم باسم محمّد في الجاهليّة، وهو الطمع في النبوّة"[68]، هتان الخاصيتان اللّتان يذكرهما جنّوف يؤكّدهما الخبر الّذي يورده الحلبي عن جدّ الرّسول "أردت أن يحمده اللّه في السّماء وتحمده النّاس في الأرض"[69]، ونحن لا نرجّح أنّ جدّه عبد المطلب قال ذلك بل هو من وضع مخيال المسلمين قصد التعظيم من شأن الرّسول وأن يصنعوا له سيرة تدخله في زمرة العظماء رغم أنّه لم يشهد الإسلام ولم يعلن إسلامه ولم يكن صحابيّا. وكلّ هذا مردّه إلى أن يجعلوا لعبد المطّلب فضل الاهتداء إلى الاسم في زمان "الفترة"[70]، فتضاربت الأخبار وتعدّدت الروايات بأنّه كان من الحنفاء على دين إبراهيم، إضافة إلى أنّ البعض عدّه من "عظماء الإسلام"[71]. أمّا فيما يخصّ التسميّة ووجودها في الجاهليّة فإنّ قول الحلبي يؤكّد وجوده التامّ قائلا "إنّ الّذين سمّوا بهذا الاسم قبل محمّد كانوا ستّة عشر رجلا في قول وثمانيّة عشر في قول آخر"[72]. لكن هاتين الصيغتين لا تدلاّن على اليقين وصحّة الخبر بل إنّهما توحيّان على الحيطة وعدم القطع والجزم بصحّة الخبر، فقول الحلبي"عدّ بعضهم" يدفعنا إلى التساؤل عن هويّة "بعضهم" وعن حجّتهم وسندهم.

إنّ إنكار وإثبات وجود تسميّة محمّد قبل الإسلام يبعث في نفس الباحث الحيرة حول صحّة الخبر من عدمه، وربّما يدلّ أكثر على أنّه صناعة وأسطرة من المسلمين لتعظيمه وإحاطته بنوع من الهالة والقداسة. فثمّة أخبار تزعم أنّ كعب بن لؤي

–جدّ محمّد السّابع– كان "يجمع قومه يوم العروبة [الجمعة] ثمّ يعظهم ويذكّرهم بمبعث النّبي ويعلّمهم أنّه من ولده ويأمرهم بإتباعه فأنشد أبياتا منها:

على غفلة يأتي النّبي محمّد فيخبر أخبارا صدوقا خبيرها"[73]

كما اعتقد كتّاب السيرة أنّ اسم محمّد دليل على النبوّة وعلامة عليها، ويذكر ابن هشام قول جدّ الرّسول لأبيه "فإذا وقع فسميه محمّدا، فإنّ اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السّماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السّماء وأهل الأرض، واسمه في الفرقان أحمد، فسميته بذلك"[74]. كما يعتبر كتّاب السيرة أيضا أنّ اللّه حمى اسم الرّسول من أن ينتهك بكثرة الاستعمال وصرفه عن كلّ من يدّعي النبوّة "حتى لا يلتبس على أحد ويدعوه بالرّسول"[75]. فقالوا أنّ الاسم لم يكن معروفا إلى أن قرب موعد مولد محمّد بن عبد اللّه فسمى بعض النّاس أبناءهم به "وهذا الاعتقاد نشأ في السّنوات الأولى من ظهور الإسلام"[76].

ويقدّم جنوف مقارنة بين ما اعتقده ابن سعد (230هـ/ 845م) في تسميّة محمّد وما اعتقده القاضي عياض (544هـ/ 1149م) في بيان أسمائه (ص)، يقول ابن سعد "كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهّان أنّ نبيّا يبعث من العرب اسمه محمّد، فسميّ من بلغه بذلك من العرب ولده محمّدا طمعا في النبوّة، وقال القاضي عياض " وكذلك محمّد أيضا لم يُسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده (ص) وميلاده أنّ نبيّا يُبعث اسمه محمّد، فسميّ قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو"[77].

وما يميّز قول ابن سعد عن القاضي عيّاض، أنّ مقولة ابن سعد جاءت معمّمة وفي المطلق بقوله "كانت العرب"، أمّا قول القاضي عيّاض فجاء مقترنا بزمان محدّد ومخصوص أي قُبيل ولادة الرّسول، زد على ذلك قوله أنّ فئة قليلة كانت تسمي بهذا الاسم، وبذلك فالقولان لا يمكن أن يتشابها، و"لعلّ سبب تردّد هذا الاسم في كتب السيرة يكشف عن نظرة المسلمين إلى اسم نبيّهم ومدى احتفائهم به"[78]. يقول جنّوف معلّقا على قول القاضي "ويبدو من كتاب **الشفا** أنّ القاضي عياض كان مشغولا بإثبات فضل النّبي وإظهار خصائصه الّتي مازته عن سائر النّاس بل من الأنبياء، فبدّل صيغة الرواية لتظهر ما لم يصرّح به ابن سعد"[79].

إنّ تعدّد أسماء الرّسول بين محمّد وأحمد جعل الدّارسين يبحثون في كيفيّة استعمال النّاس لهذين الاسمين، فانتبه (منتقمري وات) Montgomery Watt إلى أنّ "أبناء المسلمين لم يسمّوا قطّ باسم أحمد حتى سنة 125هـ"[80]، ونحن نستغرب هذا القول لأنّ أغلب المصادر أجمعت على وجود هذه التسميّة في تلك الفترة، وحسب ما فهمنا من كتابات ابن سعد بشأن الاسم أنّ المسلمين كانوا يجدون حرجا في تسميّة أبنائهم باسم الرّسول وذلك حرجا من مقام النّبوّة. ويخبرنا ابن حجر برواية يرى أنّها كانت ستتسبّب في منع تسميّة اسم محمّد في عهد عمر بن الخطّاب "وتعود الأسباب إلى أنّ ربه سُبّ عنده وكان يدعى محمّد لولا أنّه علم أنّ الرّسول كان يسمّي أبناء المسلمين باسمه"[81]. وفي المقابل ثمّة من يرى انّ اسم محمّد ظلّ موجودا لأنّه مقترن بالشهادتين "لقد نصّت نصوص الاثني عشريّة على وجوب اشتمال التشهّد على الشهادتين للّه عزّ وجلّ وللرّسول (ص) ونصّ البعض الآخر على وجوب الصّلاة على النّبي بعد الشهادتين"[82].

ونقرّ بأنّ اسم أحمد أو محمّد لم تذكره المصادر العربيّة مثل كتاب **الخراج** لأبي يوسف، و**المغازي** للواقدي في تلك الفترة، فهذا لا يعني أنّ الاسم لم يكن موجودا كما يدّعون، فمن النّاس من لم يكن معروفا وهو يحمل اسم أحمد، نذكر مثلا أحمد الفراهيدي والد الخليل، فإنّه لا يعرف إلاّ بابنه المولود سنة 100هـ أي أنّ أحمد ولد سنة 75هـ وعلى أقصى تقدير سنة 80هـ، وغير بعيد أن يكون ثمّة من اسمه محمّد.

تفاجأ المستشرق أورده دي مونينM.G.DemombyNes بعدم اعتماد تسميّة أحمد كتسميّة رسميّة ورئيسيّة بتعلّة أنّ القرآن "ينقل بشارة عيسى بأنّ رسولا يأتي بعده واسمه أحمد"[83]، ونرى أنّ هذا الإضمار والسكوت يدخل في دائرة الأسطورة، ويرى بعض المصنّفين القدامى أنّ أسماء الرّسول "كلّها نعوت، ليست أعلاما محضة لمجرّد التعريف بل أسماء مشتقّة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال"[84]. كما يرى ابن الجوزي أنّ اسمه مشتق حتما من خصاله فيقول "إنّ هذين الاسمين إنّما اشتقّا من أخلاقه وخصائصه المحمودة الّتي لأجلها استحقّ أن يسمّى محمّد (ص) وهو الّذي يحمده أهل السّماء والأرض وأهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله المحمودة الّتي تفوق عدّ العادّين وإحصاء المحصين"[85].صارت يقينيّات الوعي الديني السائد وثوابته الموروثة موضوع سؤال وبحث ومراجعة إذ تبدو بعيدة عن حقيقة الواقع لذلك يربك التجديد المسلّمات وينزّلها من عليائها ويضعها على محكّ الدراسة والبحث وعنها يزيل لحاف القداسة.

خاتمـــــــــــة:

إنّ المتمعن في الأخبار الّتي وصلتنا عن ظروف و تحديدزمن ولادة النبي محمد وتسميّته يدرك مدى التصاقها وتداخلها بالأسطورة وعدم وجود خيط ناظم لهذه الأخبار، وعليه نرى ضرورة مراجعة المرويّات ووضعها تحت محك النقد البنّاء لكشف الجوانب الأسطوريّة علما وأنّ الأسطورة لا تهجنّ العقل البشري لأنّها تمثّل جزءا من الحقيقة مهما تباعدت.

وما يفضي له هذا الكم من المرويات والآراء في شأن الرّسول محمد يعكس الطابع الإشكاليّ لمسألة المراجعات التاريخيّة والعقديّة ذلك أنّ الباحث يجد نفسه محاطا بإرث النّص والقابليّة العقليّة والمنطقيّة للحدث التاريخي عموما ولحدث النبوّة خصوصا فتتقاطر الأحداث الحافّة على غرار ولادة النبيّ وتسمياته وسيرته ومعجزاته وما ذكره وذكر عنه، وعليه فلكلّ مراجعة غاياتها وأهدافها ولكنّها تبقى رأيا يضاف إلى ما سبقه من آراء ما لم يتوفر لهذا الرأي موجبات التفرّد والخروج عن السياق العام الذي تطرح فيه مسألة النبوّة تاريخيا وعقديّا،ليقع التروي فيها على غرار ما تشهده البحوث الإسلاميّة المعاصرة من اهتمام بالمنهج الأنتروبولوجي و الهيرمينوطيقي في التعامل مع النصوص التاريخيّة والدّينيّة.

الهوامش :

[1]أندريه لالاند،**موسوعةلالاند الفلسفيّة**، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت–باريس، ط1، 1996، المجلّد2،ص850.

[2]Mercé Eliade, aspect du Muthe, NRF Gallimard,Paris1963,p78.

[3]Pierre Smith:" la structure des mythes reflète la structure de l esprit humain". Mythe ENCYCLOPEDIA UNIVERSALIS.corpus 15,p1039.

[4]Sartre(j.p),QU EST CE QUE LA LITTERATURE, Gallimard. Paris 1948, p 48.

[5]تركي علي الربيعو، حدود العلاقة بين الأسطورة والتاريخ في المصادر العربيّة الإسلاميّة، **الفكر العربي المعاصر**، عدد76–77، ماي 1990،ص 41.

[6] فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين، دمشق، ط1، 2002، ص19.

[7]انظر كامل القصّة في، ابن هشام، **السيرة، ج1**، ص 155–156

[8]ابن هشام، **نفسه**، ص ص 157–158.

[9]انظر كامل القصّة مع ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **كتاب الموضوعات**، السعوديّة، المكتبة السلفيّة/1966،ص ص 28–29.

[10]**نفسه**، ص 29.

[11]منصف الجزّار، **المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول**، دار محمّد علي الحامي، ط1، 2007، ص91.

[12]هي **مكّة** المكرّمة الّتي تضمّ أكثر المواضع قداسة لدى المسلمين، وفيها الكعبة المشرّفة، وفيها ولد الرّسول صلى اللّه عليه وسلّم وفيها عاش زهاء خمسين عاما... تقع مكّة في الحجاز على بعد حوالي 72 كيلو متر من ميناء جدّة على ساحل البحر الأحمر على خطّ عرض 27.، 21 شمالا، خطّ طول 49، 39 شرقا، وهي الآن عاصمة منطقة مكّة الإداريّة في المملكة العربيّة السعوديّة... كانت مكّة موضعا مقدّسا منذ أزمنة قديمة، ومن الواضح أنّها كانت معروفة لبطلميوس الّذي أشار إليها باسم مكوراباMacoraba، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في الآية 24 سورة الفتح "وهو الّذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وكان اللّه بما يعملون بصيرا" كما ورد ذكرها باسم بكّة (بررالباء) في الآية 96 من سورة آل عمران "إنّ أوّل بين وضع للنّاس للذي ببكّة مباركا"...

دائرة المعرف الإسلاميّة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط1، 1418هـ – 1998م، الجزء الحادي والثلاثون، ص ص 9591-9597.

[13]العفيف الأخضر، **من محمّد الإيمان إلى محمّدالتارخ**، دار الجمل للنشر، كولونيا ألمانيا، ط1، 2014، ص 35.

[14]– الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج 1، ص 121.

[15]معروف الرصافي، **الشخصيّة المحمّديّة أو حلّ اللّغز المقدّس**، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 2002ص 73/72.

[16]ابن كثير **ذكر مولد النّبي (ص) ورضاعه**، تح. ياسين السّواس ومحمود الأرناؤوط، بيروت دمشق، دار ابن كثير، ط1، 1407هـ/1987م، ص ص 68-69، وانظر كذلك علي بن برهان الدّين الحلبي، **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، دار المعرفة، بيروت ، د.ت، ج1، ص94.

[17]الرصافي، **نفسه**.

[18]نفسه، ص 57.

[19]**السيرة الحلبيّة**، ج.3، ص ص145/144.

[20]الرصافي،**نفسه**،ص 59.

[21]**نفسه**، ص 74.

[22] هشام جعيّط، **في السيرة النبويّة 3،مسيرة محمّد في المدينة وانتصار الإسلام**، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2015، ص،57.

[23]**نفسه**، ص،133.

[24] أبو محمّد عبد الملك بن هشام، **سيرة النبي**، ط1، دار الصحابة للتراث، طنطا،، 1995، ج 1، ص، 208.

[25] علي بن برهان الدين الحلبي، **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، بيروت دار المعارف مصر، د – ت ج1، ص، 96.

[26]معروف الرصافي، **الشخصيّة المحمديّة**، مرجع سابق، ص، 103.

[27]أورد جواد على في **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج 2، دار الحداثة، بيروت، 1988 ص 386 نصّا معرّبا عن أبرهة: "بحول الرحمن ومسيحه. الملك أبرهة زبيمان ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت "اليمن" وأعرابها في الطود "الهضبة" وفي تهامة "المنخفضات". سطروا هذه الأسطر لما غزت معد: الغزوة الربيعية بشهر ذو الثبات "ذ ثبق" "ذو الثبت". ولما غلظ " ثار" كل "بنو عامر". أرسل الملك "أبا جبر"، بقبيلة "كدت" كندة وقبيلة "عل" و "بعثر بن حصن" "بشرم بن حصنم" بقبيلة "سعد" لحرب "بني عامر" فتحركا بسرعة وقدما جيشهما نحو العدو: وحاربت "كدت" بكندة وقبيلة "عل" بني عامر ومراداً، وحاربت "سعد" بواد "بمنهج" ينهج "يؤدي" إلى "تربن" "الترب". فقتلوا من بني عامر وأسروا وكسبوا غنائم. وأما الملك، فحارب ب "حلبن" "حلبان"، وهزمت معد، فرهنت رهائن عنده.

وبعدئذ، فاوض "عمرو بن المنذر" "عمرم بن مذرن"، وقدّم رهائن من أبنائه. فاستخلفه "اقره" على معد. وقفل "أبرهة" راجعاً من "حلين" "حلبان"، بحول الرحمن. بتأريخ اثنين وستين وست مئة".

وقد درس بعض الباحثين هذا النص، فذهب بعضهم إلى أنه يشير إلى حملة أبرهة على مكة في العام الذي عرف عند أهل الأخيار ب "عام الفيل" وأشير إليها في القرآن الكريم. وذهب بعض آخر إلى أنه يشير إلى غزو قام به أبرهة تمهيداً لحملة كان عزم القيام بها نحو أعالي جزيرة العرب، فتوقفت عند مكةْ وذهب آخرون إلى إن ما جاء في هذا النص لا علاقة له بحملة الفيل، ذلك لأن هذه الحملة كانت في سنة "547" للميلاد على تقديرهم، على حين كانت حملة الفيل سنة "563" على تقديرهم أيضاً..... غير أنّ بعض الباحثين رأى أن هذه الحملة كانت مقدمة لحملة الفيل، أي حملة تجريبية سبقت تلك الحملة. وحجة الفريق الأول ما ورد في بعض الروايات من أن مولد الرَسول، كان بعد عام الفيل بثلاث وعشرين سنة أي في حوالي السنة "547" للميلاد. وهو تأريخ ينطبق مع السنة المذكورة في النص، إذا أخذنا برأي من يجعل مبدأ التقويم الحميري سنة "115" قبل الميلاد. ومن ورود رواية أخرى في حساب السنين عند قريش، تظهر بنتيجة حسابها وتحويلها أن عام الفيل كان في سنة "552" بعد الميلاد.

[28] جواد على في **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج 2، ص 389.

[29] "يوسطنيانوسJustinian "الذي حكم من سنة"527" حتى سنة "566" للميلاد، وكان حكمه بعد حكم "يسطين" الذي ولى الحكم من سنة "518" حتى سنة "527" للميلاد. وكان "يوسطنيانوس" "يوسطنيان" قد وضع خطة للتحالف مع الحبش ومع حمير للإضرار بالفرس. وراسل "السميفع أشوعEsimiphaeus "للاتحاد معه ولمحاربة الفرس. فلما تولى "أبرهة" الحكم عاد القيصر فاتصل به، وتودد إليه لتنفيذ ما عرضه على "السميفع أشوع" من مهاجمة الفرس. فوافق أبرهة على ذلك، وأغار عليهم غير أنه ترجع بسرعة. انظر جواد على، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج 2، ص 385.

[30] هشام جعيّط ، في السيرة النبويّة3، **تاريخيّة الدعوة المحمديّة في مكّة**، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ص، 143.

[31] M. Rodinson, la vie de Mohamed et probléme sociologique des origines de L'Islam, Diogéne n°20 oct 1957, p 38.

[32] انظر في ذلك ابن سعد، **الطبقات الكبرى نفسه**، **ج**1،ص ص، 173 – 174 و ج 2، ص ص، 235 – 237، والبلاذري، **أنساب الأشراف**، **مرجع سابق**، ص ص، 114 – 115.

[33] هشام جعيّط، في السيرة النبويّة2، **تاريخيّة الدعوة المحمديّة**، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، 2007،ص، 143.

[34]جعيط، **نفسه**، ص 311.

[35] هشام جعيّط ،**تاريخيّة الدعوة المحمديّة**،**نفسه**، ص، 143.

[36]Jacqueline Chabbi,le coran décrypté, fiures bibliques en rien que des mots, Fayard 2008, p26.

[37]جواد علي، **تاريخ العرب في الإسلام**، **السّيرة النبويّة** ، طبعة دار الحداثة بيروت، 1988، ص 114.

[38] هشام جعيّط ،**تاريخيّة الدعوة المحمديّة**، **نفسه**، ص، 145.

[39] محمّد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، طبعة، دار صادر، بيروت، د – ت ، المجلّد الأوّل، ص– ص، 94– 95.

[40] أبو محمّد عبد الملك بن هشام، **سيرة النبي**، ط1، دار الصحابة للتراث، طنطا،، 1995، ج 1، ص،ص 203 – 204.

[41] محمّد بن إسحاق بن يسار، **سيرة ابن اسحاق المسمّاة بكتاب المبتدإ والمبعث والمغازي**، تحقيق وتعليق محمد حميد الله، الوقف للخدمات الخيريّة إدارة النشر والتوزيع قونية – تركيا ، 1981 ، ص 22.

[42] محمّد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، طبعة، دار صادر، بيروت، د – ت ، المجلّد 3، ص، 10.

[43] هشام جعيّط ،**تاريخيّة الدعوة المحمديّة، نفسه**، ص، 28.

[44]محمّد الزحيلي، **مرجع العلوم الإسلاميّة**، دار المعرفة، دمشق، 1413ه/1992م، ص17.

[45]ابن هشام، **السيرة النبويّة**، تح طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، ط1، بيروت، 1411ه/1991م، ص ص 80-81.

[46]الماوردي، **أعلام النبوّة**، تح سعيد محمّد للّحام، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1409ه/1989م، ص ص 207-208.

[47]**صحيح مسلم**، تح.محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، ط1، القاهرة، 1412ه/ 1991م، ج4، ص ص 1828-1829.

[48]H.Lammens, Qoran et tradition, comment fut composée la vie de Mahomet, extrait de recherche de science religieuse, n°1, Paris , 1910, p9.

[49]البلاذري، **نفسه**، ص91.

[50]**نفسه**، ص، 104.

[51]**نفسه**، ص، 105.

[52] محمّد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، طبعة، دار صادر، بيروت، د – ت ، المجلّد الأوّل، ص، 129.

[53] علي بن برهان الدين الحلبي،**إنسان العيون في سير الأمين المأمون** ، بيروت، د – ت ، ج1،ص،134.

[54] محمّد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، طبعة، دار صادر، بيروت، د – ت ، المجلّد الأوّل، ص- ص، 169.

[55] القاضي عياض بن موسى اليحصبي، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، تحقيق كمال البسيوني زغلول المصري، دار الفكر، بيروت، 1995، ج1، ص، 177.

[56] ابن هشام، **السيرة النبويّة**، مرجع سابق، ص 248.

[57] شمس الدين محمّد بن القيم، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د – ت،م1، ج1، ص،36.

[58]هشام جعيّط ،**تاريخيّة الدعوة المحمديّة، نفسه**، ص، 147.

[59] إسماعيل أحمد أدهم، **حياة محمّد ونشأة الإسلام**، ط1، مطبعة صلاح الدين الكبرى،1936، ص 5.

[60] علي بن برهان الدين الحلبي،**إنسان العيون في سير الأمين المأمون** ، بيروت، د – ت ، ج1،ص، 131.

[61]انظر، علي بن يحي البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق، محمّد حميد الله، دار المعارف، مصر، 1959، ج1، ص، 91.

[62] هشام بن محمد بن السائب الكلبي،**كتاب الأصنام**، تحقيق أحمد زكي، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب ، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ص ص، 30 – 32.ها بأسماء

[63]هشام جعيّط، **نفسه**، 146.

[64] محمّد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، طبعة، دار صادر، بيروت، د – ت ، المجلّد الأوّل، ص، 54.

[65]هشام جعيّط ،**تاريخيّة الدعوة المحمديّة، نفسه**، ص، 146.

[66]محمّد بن سعد (23ه/845م)، **الطبقات الكبرى**، تح.محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1410ه/ 1990م، ج1، ص129.

[67]أبو نعيم أحمد عبد اللّه الأصفهاني (430هـ/ 1038م)، **دلائل النبوّة، مكّة**، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، د.ت، ص190.

[68]عبد اللّه جنوف، **نفسه**، ص21.

[69]علي بن برهان الدّين الحلبي، **نفسه**، ج1، ص128.

[70]الفترة: ما بين كلّ نبيين، وقي الصحاح: ما بين كلّ رسولين من رسل اللّه عزّ وجلّ من الزمان الّذي انقطعت فيه الرّسالة، وفي الحديث: فترة ما بين عيسى ومحمّد عليهما السّلام والصّلاة. **لسان العرب**، مادّة [ف ت ر].

[71]محمّد كامل حسن المحامي، **عبد المطّلب بن هاشم**، المكتبة العلميّة للطباعة والنّشر، ط2، سلسلة عظماء الإسلام، بيروت، 1988، ص21.

[72]الحلبي، **نفسه**، ص134.

وأورد الخبر بصيغتين "وقد عدّ بعضهم" و"قال بعضهم".

[73]عبد الكريم بن خطيب السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السّيرة النبويّة لابن هشام**، تح، عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409هـ/ 1984م، ج1، ص8.

[74]ابن هشام، **نفسه**، ص22.

[75]القاضي عيّاض، **الشّفا بتعريف حقوق المصطفى**، تح. كمال السيوفي زغلول المصري، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/ 1995م، ج1، ص188.

[76]ابن حجر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تح. عبد العزيز بن عبد اللّه باز، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج10، ص ص 570-571.

[77]راجع عبد اللّه جنّوف، **نفسه**، ص22. وراجع القاضي عياض، نفسه، ص188.

[78]جلال الدّين عبد الرحمان السيوطي، (911هـ/ 1505م)، **الخصائص الكبرى**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج1، ص23.

[79]جنّوف، **نفسه**، ص23.

[80]M.Watt, His name is Ahmed, en Muslim world, vol, XLIII N°2, Paris, 1953, p p 110-117.

[81]ابن حجر، **نفسه**، ص ص 575-577.

[82]علي محمّد كوراني، **فلسفة الصّلاة**، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1972، ص283.

[83]M.G.DemombyNes, Mahomet, Paris, 1969 , p61.

[84]ابن القيم، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تح.طه عبد الرؤوف سعد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، م1، ج1، ص34.

[85]**نفسه**، م1، ج1، ص32.